لا سامية ولا سامية.. سامية الأهواء

إن السامية فكرة لغوية، وقد تمتد لتكون عرقية، مجردة عن الإيديولوجيا، وحين يكون الأمر مجرد أرومة ونسب فإن اليهود أبناء عمومة للعرب، وهم جميعاً من أصل لغة واحدة، وهي ما اصطلح على تسميتها بالساميّة.

لكن الأمر أبعد من ذلك ففي الوقت الذي ندافع فيه نحن عن السامية كلفظ عرقي، أو لغوي بعيد عن الإيديولوجيا، يتحدث اليهود عن تراكمات دينية طرأت على هذا الأصل فاحتكم إليها.

لذلك نقول إن إغفال التراكمات هو إغفال لعنصر الزمن كما أنه إغفال للديانات التي طرأت على الكرة الأرضية.

ولعلّي أستطيع الولوج إلى الفكرة المرتجاة عبر سؤال بسيط: ما هو موقفنا من موسى عليه السلام، نحن العرب، أمْ نحن المسلمون؟ إنّ موسى بالنسبة لنا نبيّ كريم مرسل من الله تعالى، وكذا سليمان وداوود عليهم السلام، وكونهم يهوداً لا يعني أنّهم أعداء لنا.

غير أن مجيء محمد ﷺ قلب المعادلة، إذ أن اليهود ينظرون إليه كنبي ورسول عربي, وآنذاك فيجب على الشريعة اليهودية المحرفة أن تقف موقفاً محارباً لهذا النبي وقومه، ومن ثمّ سقطت الحرب العرقية القديمة التي كانت بين العبرانيين والعرب لتحل محلها الحرب الدينية.

وقد كشفت هذه الدينية المشحونة بالآيات من جهة المسلمين والأسفار المحرفة من جهة اليهود على أن جهة ما من جهتي الصّراع مختلة العلاقة بالسماء، إذ أنّ الدين كله من الله، فكيف يحارب الدّين الواحد نفسه؟ هنا برز جليّاً التموقع الجديد لليهود في إطار متميز هو شبيه بقلعة المواجهة للآخر، وكانت هذه القلعة هي قلعة العناد والإصرار على الخطأ والتأويل المبطل. وبدأ ما سّماه روجيه جارودي فيما بعد بالتأسيس للسياسة بالأساطير. إنّ حرب اليهود ضدّ محمد ﷺ لم تكن حرباً دينية بل كانت حرب خوف على المصالح.. أو لنقل: «حرب حَسَد» أملاها الإحساس بالتميّز والكبر أمام الشعب العربيّ البدويّ..ومن هنا حدث الانفصام بين اليهود والعرب، ولم يعد بالإمكان الحديث عن بني عمومة.. إذ أنّ العقيدة الدينية كانت قد حسمت الأمر لصالحها..وظهر اللامسلمون ـ واللا يهود ـ بدل المسلمين واليهود في علاقة الفريقين ببعضهما..إنّ المسلمين واليهود علاقة قد تعني محمداً وموسى عليهما السّلام، لكن اللامسلمين واللايهود.. لا تعني ذلك، لأنّها تحمل معنى خفيّاً للتدافع ورفض الآخر..إنّ هذا التراكم الديني قد استطاع أن يقوِّض كلّ علاقة قديمة كانت بين الشّعبين.. والأمر راجع إلى اليهود، لأن قضيّة الدين، أو الله، عند اليهود شبيهة إلى حدّ كبير بقضية الساميّة، ذلك لأن شوفينية اليهود تجعلهم دائماً يحبّون الانفراد والتميّز..فالله ربهم لوحدهم.. وهم الشعب المختار.. والجنّة لهم.. والسامية لهم..هل يعقل أن تكون الساميّة اللغوية تعني اليهود فقط.؟وهل يُعقل أن يكون الله سبحانه أباً أو إلهاً لليهود فقط؟!!وهل يعقل أن تكون الجنّة موعود اليهود فقط؟تلك هي عقدة اليهود والتي هي عقيدتهم..إنّ إله اليهود (يهوه)

يعدّ شكلاً مطوّراً حسب نزوات نفوسهم، تماماً كما أنّ مدلولات السامية قد طُوّرت حسب ما يروق لهم..بل إنّ موسى عليه السّلام لم يمثّل بالنسبة لهم نبيّاً بقدر ما مثل لهم مخلّصاً.. لأنّ نفوسهم لم تكن تتوق إلى الفضيلة لتستدعي إرسال رسول إليهم، بقدر ما كانت تتوق إلى الخروج من التيه والذل وهو ما يستدعي وجود قائد شجاع مخلّص..لذلك كانوا يؤمنون بموسى ساعة ثم يعودون بعده إلى العجل.. الذي نصبه لهم السامريّ..ثمّ إنّ الأفكار الساميّة اليهودية قائمة على أساطير غير توحيدية.. وهو أمرٌ يبرز أنّ فكرة الوعد ليس المقصود بها الله تعالى ففي سفر التكوين نجد:«في ذلك اليوم، قطع الربّ مع إبراهام ميثاقاً قائلاً: لنَسْلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النّهر الكبير إلى نهر الفرات» سفر التكوين ١٨ / XV وإبراهيم عليه السّلام لم يكن يهودياً بنصّ القرآن الكريم: {ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً} ومعنى ذلك أنّ هذا السّفر من الموضوعات الإسرائيلية، فمن الذي أعطى اليهود هذه الأرض العربية؟! إنّ البعض يرى أن الذي فعل ذلك هو يهوه (YAHUE) الإله الذي دخل فلسطين مع الفئة المهاجرة، لكنّ مجاراة الأسطورة وأوهامها يجعلنا نقول أنّ (يهوه) ليس مؤهّلاً لأن يعطي أرضاً ليست له، وآنذاك فالذي فعل ذلك هو «EL» إله الكنعانيين إذ الأرض أرضه..وأمام عجز يهوه أن يعطي، ندخل بوابة الحديث عن الشرك اليهودي.. وعن السياسة المبنية على هذه العقيدة البعيدة عن التوحيد، وعن تعاليم موسى عليه السّلام..إنّ إله اليهود إله حسب المقاس، يقول عنه ديورانت:

«كان إله اليهود إلها للرعد.. ثم تحول إله للحرب يدعو للفتح ،

ويحارب من أجل شعبه... وهو رجل حرب وكذلك يجب أن يكـــون لأن رعايا ملك آرام .. إلههم ، جبال.. ولذلك قووا علينا».

ومن هنا أرادوا ـ أي اليهود ـ أن يكون إلههم إله حـــرب، وقـــوة ـ ليحقق ما في نفوسهم من تسلّط وعدوان..ومن هنا نلاحظ أن اليهـــود لم يكونوا موحّدين»[1].. إنّ هذا التّحوير للإله ليكون حسب الطلـــب، هـــو نفسه التحوير لمعنى السامية، وهو نفسه التحوير لشخصية موســـى عليـــه السلام لتكون مجرّد شخص مخلّص لا نبيّاً متّبعاً.. ومن ذلك يظهر «الهوى» الذي يفصّل عليه اليهود مقاسات عقائدهم وآرائهم وسياســـاتهم منـــذ أن وُجِدُوا.. والدينيات ليست عندهم سوى مرتكزات خادمة لمتطلّبات النّفوس الخسيسة..

وحينذاك، فحين يقول اليهود إنّ العرب والمسلمين أعـــداء الله وهـــم يقصدون إله الرعد أو الحرب. الذي يعبدون ويعتقدون أنّه أباهم، فإنّه ليس من الواجب على العرب والمسلمين أن يقولوا أن الدين واحد، وإلا فـــنحن أيضاً عبّاد (يهوه).

القول آنذاك هو كفرنا بإله الحرب والصـــكوك المـــزوّرة اليهـــودي، وبسامية اليهود..

(١) العنصرية الصهيونية وكيفية مواجهتها، لخليل إبراهيم حسّونة، ص (٨٤).